رد على مقال:

ملاحظات حول قضية الاهتمام بالرأي العام العالمي

لا حاجة للاشارة الى ان المقال التالي يمثل رأي كاتبه صاحب التوقيع ، وهو رد حر على وجهة نظر نشرتها « الهدف » مشيرة وقتها الى انها ، ايضا ، تمثل فقط رأي كاتبيها ، في العدد ٨٢، حول مسألة مهمة لا بد من استمرار الحوار بشأنها ، وهي مسألة الراي العام العالمي واهميته ودوره .

« الهدف »

الدراسة المعنونة « ملاحظات حول قضية الاهتمام بالراي العام العالمي » (الهدف ـ عدد ٨٢) تحتوي على العديد من النقاط المتناقضة والتي تحتاج الى المناقشة :

ـ يبدأ كاتبا المقالة بالقول بانه على الرغم من تأكيدهما التام « على صحة السياسة التي تتبعها الجبهة الشعبية واساليب نضالها » فان هذه الموافقة يجب الا تمنعهم من « ابداء بعض الملاحظات التي .. تتعلق بظاهرة خاصة يتصف بها تاريخ القضية الفلسطينية وتاريخ النضال العربي ضد الصهيونية » . ولهذا ، يقول الكاتبان ، فانهما يودان « لفت نظر الجبهة الشعبية لهذه المفاهيم التي نعتقد انها منبثقة على فروض ومعطيات خاطئة من الاساس »

من المؤسف ان كل ما يحتاج اليه القارىء هو الاستمرار حتى قراءة الفقرة التالية ليجد ان جدلية الدراسة نفسها مبنية على فروض ومعطيات خاطئة من الاساس . حيث اننا ما نكاد ننتهي من قراءة الفقرة التي تنصحنا بعدم الاهتمام بالراي العام العالمي حتى نجد التعبير القائل : « ان القضية الفلسطينية ، بالرغم من كل الجهود التي ترمي الى وصفها بالتعقيد ، هي في جوهرها قضية واضحة وبسيطة . انها قضية شعب شرد من وطنه وسلبت اراضيه وممتلكاته ليحل محله يهود من اطراف الارض » . فهل المعنى هنا ان الشعوب الغير العربية ، او حتى الشعوب العربية ذاتها ، عليمة بهذه الحقيقة البسيطة على حد تعبير الكاتبين ؟

ان الوسائل المتبعة للتوصل الى هذا الاستنتاج غير معلومة ولكنه سيكون من الغريب حقا اذا كان التوصل الى هذا الاستنتاج قد تم عن طريق مخالطة الشعب الاميركي ـ او حتى الطبقة المثقفة في اميركا ـ او اي شعب اجنبي آخر .

يستمر المقال الى تصنيف الاراء العامة العالمية الى ثلاثة اصناف :

■ الاول : هو الصنف الصديق والذي يتكون من الحركات الثورية العالمية .

■ والقسم الثاني هو الصنف المحايد « وهو الذي يؤيد شعب فلسطين تحت شروط او ظروف معينة » . يمضي المقال الى الاستنتاج بان « تأييد هذه الجماعات سيبقى تأييدا مشروطا وليس من الممكن جعلها قوات ثورية مهما كرست من أجل ذلك الجهود الاعلامية » .

قد تكون هذه النظرية مبنية على اعتقاد شخصي ، ولكن اذا كانت مبنية على اساس تحليل علمي (حيث ان هذا هو الانطباع الذي يعطيه المقال) فمن الواضح انها تناقض صريح ليس مع النظرية الماركسية فحسب بل مع خلاصة المقال نفسه التي تقول « .. ان الاحترام الكبير الذي تتمتع به الحركة الثورية في فيتنام .. هو نتيجة البطولات الرائعة التي ادت الى ازدياد التناقضات داخل المعسكر الاستعماري والمجتمع الاميركي ذاته » . ليس من المفهوم كيف ستؤدي هذه البطولات الى تقوية التناقضات داخل المجتمع الاميركي اذا استحالت امكانية تثوير قطاع مهم في اي مجتمع ـ وخاصة المجتمع الاميركي ـ وهو القطاع « المحايد » .

اما القسم الثالث فهو « الراي العام العدو » والذي « يتكون بصورة عامة من الحكومات الاستعمارية والمنظمات الرجعية والانظمة العميلة » ليس من الواضح ما هو المقصود هنا ، فهل المقصود هو ان الحكومات الرجعية هي جزء عضوي من الشعب ؟ وهل هذا يعني ان حكومة هيلاسيلاسي الرجعية مثلا هي جزء لا يتجزأ من الشعب الاثيوبي ؟!.

بعد هذا التصنيف ينتقل الكاتبان الى تلخيص استنتاجاتهما ، والتي ـ كما سنرى ـ ليست مبنية على فروض خاطئة فقط وانما تتعداها الى كونها تتناقض تناقضا صريحا مع ما سبقها .

يقول الكاتبان : « بالاضافة الى الافلام التي تخلق طابعا خاطئا عن العرب وآلاف الاعلانات والفكاهات والكاريكاتورات الرامية الى اثارة الكره او الاحتقار لكل ما هو عربي . لا يمكن اذن من الناحية الواقعية والعملية التنافس مع الصهيونية في هذا المجال وهذا ليس ناتج عن قصور او ضعف اعلامي عربي بل عن السيطرة الصهيونية على اجهزة الدعاية والاعلام » . هنا لا بد من اثارة السؤال : ما هو الفرق بين هذا القول وبين القول : ان الدولة الصهيونية متفوقة تكنولوجيا وعليه لا يمكن اذن من الناحية الواقعية والعملية التنافس مع الدولة الصهيونية .. وهذا ليس ناتجا عن قصور او ضعف الاجهزة العسكرية العربية بل عن سيطرة الصهيونية على الوسائل التقنية الحديثة ؟!! هذا هو ما يسمى بالموقف الانهزامي ، والمفهوم ضمنا هنا هو ان الراي العام العالمي مهم ولكن نظرا لسيطرة الصهيونية على هذا القطاع فعلينا ان نقف موقف المتفرجين على هذه المسرحية .

يمضي المقال الى القول : « ان اعطاء المكان الاول للراي العام الاميركي والاوروبي ، بالاضافة الى انه اهانة الشعوب والقوى المناضلة ضد الاستعمار في مختلف انحاء العالم ، فانه مبني على افتراض خاطىء الا وهو ان سياسة الدول الاستعمارية من الممكن التاثير عليها عن طريق الجدل والمناقشات او محاولة ابتزاز الرحمة والشفقة ، الى آخر ذلك من المحاولات العقيمة والمذلة » . واعلميتاه !!

كيف اذن يمكن تغيير سياسة الدول الاستعمارية (او حتى جهاز الدولة نفسه) سوى عن طريق خلق تناقضات داخل المجتمع الاستعماري نفسه ؟! الم نتعلم دروسنا بعد من الحرب الفيتنامية ؟ وهل ما زلنا نفكر وكاننا نعيش في العالم التقليدي الذي لم يعرف لديه شيء اسمه اسلحة نووية ؟ هل المقصود هو انه بامكان الحركات التحررية ان تتغلب عسكريا على الدولة الاستعمارية وتجبرها على تغيير سياستها ؟! ام هل المقصود هنا ان اميركا ستنسحب من فيتنام نظرا لان تكاليف الحرب اصبحت باهظة وليس بامكان البيت الابيض تمويلها ؟ (من الجدير بالذكر هنا ان تكاليف الحرب الفيتنامية تعادل اقل من ١٪ من الدخل القومي (عدديا) ولكن في الواقع ان هذه التكاليف لا تعتبر خسارة كلية بالنسبة للبيت الابيض نظرا لان المستهلكات التي تستعملها اميركا في الحرب هي مصنوعات اميركية فائض) . ـ هذا موضوع شاسع وجدير بالبحث ونامل ان تقوم « الهدف » بنشر دراسة عنه في المستقبل ـ .

طبعا الجواب على كل هذه الاسئلة هو جواب سلبي . حقا لقد دخلت الولايات المتحدة حربا ليس بامكانها ان تربحها ـ اولا على مستوى تقليدي نظرا لصمود الشعب الفيتنامي البطل ، وثانيا نظرا لاستحالة استعمال الاسلحة النووية ضد فيتنام نظرا لفاعلية ميكانيكية الردع النووي (راجع الهدف عدد ٧٦) . ولكن في نفس الوقت يجب التنبيه الى انه باستطاعة اميركا الا تخسر هذه الحرب وذلك لسببين :

١ ـ كما ذكر سابقا ان تكاليف الحرب لا تكون اي عبء يذكر على اقتصاد الولايات المتحدة

٢ ـ ليس بامكان الثورة الفيتنامية ان تربح الحرب عسكرية (بالمعنى الكلاسيكي) .

كيف اذن تهزم الولايات المتحدة وكيف اذن ستنجح الثورة الفيتنامية ؟

ان امتلاك الاسلحة النووية من قبل الدول قد ادى الى استحالة تغيير الانظمة القائمة في هذه الدول عن طريق استعمال القوة . بمعنى آخر لقد كان بامكان دول الحلفاء اسقاط الحكم النازي في المانيا خلال الحرب العالمية الثانية عن طريق استعمال القوى العسكرية ، ولكنه لا يوجد عند اي دولة القوة العسكرية التي تتمكن عن طريقها من اسقاط الحكم الرأسمالي في الولايات المتحدة ـ وذلك لان اي هجوم (من الخارج) على الولايات المتحدة يجب ان يكون هجوما ذريا كي يتم له النجاح . وانه لمن المستحيل ان تقوم اي دولة ذرية بشن هجوم ذري على الولايات المتحدة ـ او غيرها من الدول الذرية ـ وذلك لان مثل هذه العملية ستكون عملية انتحارية للدولة « المعتدية » نظرا لوجود المقدرة عند الدولة الذرية المعتدى عليها بالرد بالمثل . (هذه النظرية تنطبق على جميع الدول الذرية) .

على هذا الاساس ان شعب الدولة الراسمالية ـ او حتى الدولة الشيوعية المالكة للذرة ـ هو القوة الوحيدة التي بامكانها تغيير النظام القائم، وتاثير هذا الشعب ـ او ما اسمته المقالة بالراي العام ـ هو الذي سيؤدي مثلا لانسحاب القوات الاميركية من فيتنام وليست التكاليف الباهظة او غيرها . فصمود الشعب الفيتنامي هو الذي جعل « التكاليف الاجتماعية » ـ اي الخسارة في الارواح ـ لاستمرار الحرب في فيتنام تعلو الى حد اثار معارضة بعض قطاع الشعب الاميركي وزاد في تناقضاته . حيث ان هذا « العامل الاجتماعي » هو الحافز الرئيسي الذي بعث الى تزايد فرق المعارضة في اميركا وليس العامل الاقتصادي . فكما ورد سابقا ان تكاليف الحرب لا تكون اي عبء على البيت الابيض، على العكس فان الراسماليين الاميركيين يرون ان استمرار الحرب في فيتنام يخدم مصالحهم باستمرار ، ليس فقط لان مصانعهم تجد مستهلكا لمصنوعاتها، ولكن نظرا لاعتقادهم بان استمرار الحرب في فيتنام سيكون رادعا يحد من انتشار الحركات التحررية ـ وخاصة الشيوعية ـ في بقايا انحاء العالم الثالث. (من الجدير بالملاحظة هنا ان فرديناند « التكليف الاجتماعي » هذا هو الذي ادى الى المحاولة المستمرة التي تقوم بها الولايات المتحدة لتسليح جميع آليات الحرب تدريجيا الى الفيتناميين الجنوبيين انفسهم ، مما سيمكن الولايات المتحدة من مساندة تلك الفئة اقتصاديا ومعنويا (وتزويدها بالسلاح) دون ان يكلفها هذا التدخل اي خسارة في الارواح)

ـ كما هي الحال في اسرائيل ـ .

بعد هذا ينتقل المقال الى انتقاد « التركيز في الدعاية العربية على مدى الاخطار المحتملة للمصالح الاقتصادية الغربية اذا استمر الغرب في دعمه لاسرائيل » ثم يستطرد للقول بان بعض الناطقين الرسميين العرب يحاولون « استغلال العداء للشيوعية في اميركا بالتاكيد على اضطهاد الشيوعيين في البلدان العربية ... اننا لا نرى حاجة للرد على هذا الخط ، فهو يمثل الخط السياسي الرجعي الانتهازي للانظمة العربية ».

■ اولا : هل المعنى هنا هو انتقاد الاساليب التي يتبناها الاعلام العربي ام انتقاد « مبدا » وضرورة الاعلام نفسه ؟!

■ ثانيا : الا يفرق كتاب المقال بين وسائل الاعلام العربي وبين وسائل اعلام منظمات المقاومة الفلسطينية ؟ واذا كان الجواب بان كلمة « الاعلام العربي » تعني اعلام المنظمات العربية الرسمية واعلام حركات المقاومة معا فهل يوجد هناك اي شبه مثلا بين وسائل الاعلام العاجزة التي تتبناها بعض السفارات العربية في الخارج وبين عمليات خطف الطائرات التي كان احد ـ وليس كل ـ اهدافها اعلاميا ؟

« اننا نرى انه من البديهي ان هدف النشاط الاعلامي لاية منظمة يجب ان يكون شرح وتفسير وتبرير سياسة واهداف تلك المنظمة وتاريخها والاعمال التي تراها تلك المنظمة ضرورية لتحقيق اهدافها. المضمون هنا انه يجب على المنظمات (الفلانية او غيرها) ان تبرر اعمالها عن طريق تقديم تفسيرات لها . ولكن يا ترى اذا كان لا يوجد اي اهمية للراي العام العالمي ـ كما يقترح المقال ـ فلماذا اضاعة الوقت ؟ ولماذا لا تستمر هذه المنظمات اي تبرير لاعمالها ؟!

ثاني الآن الى الاستنتاج القائل ان « من الواضح ان عدد مثل هذه المقالات (الصحفية والتلفزيونية) التي اشتركت فيها المنظمات الثورية الفلسطينية ... تفوق ما قامت به جبهة التحرير الوطني لجنوب فيتنام». اي ان المنظمات الثورية الفلسطينية لا زالت لم يظهر تأمل في ان تؤثر على الراي العام الاميركي عن طريق وسائل الدعاية الاميركية ذاتها ، والا ما هو السبب في منع مراسلي الصحف والمتأزيون من الاميركان مقالات صحفية ؟ » .

ما هذه الا استهانة بالتضحيات التي يقدمها الثوار ، وليس هذا الا عين التفكير بالابيض والاسود ! فهل من الحق القول ان الثورة الفلسطينية ما زالت تأمل في التاثير على الراي العام الاميركي عن طريق وسائل الدعاية فقط !! الم يسمع كاتبا المقالة بعملية لد الصافي ، وعمان ، والجليل الاعلى ، وازا ، وجنوب لبنان وغيرها ؟ وهل يجب على الثورة الفلسطينية ان تتبع الثورة الفيتنامية واساليبها خطوة خطوة ؟ ان الظروف التي تعيشها الثورة الفلسطينية تختلف كليا عن الظروف التي عاشتها الثورة الفلسطينية . لقد تجاوزت الاولى من المراهقة بينما لم تتجاوز الثانية مرحلة الطفولة. هذا بالاضافة الى تاثير المؤسسة الصهيونية تاثيرا فعليا على وسائل الاعلام في الغرب مما يجعل المقابلات التي يجتحها قادة الثورة الفلسطينية عبارة عن محاولة شاقة لخرق الحصار الثقافي الذي تفرضه الصهيونية على القضية ـ او بالاحرى وجهة النظر ـ العربية والذي تحاول الثورة الفلسطينية ـ وبنجاح احيانا ـ خرقه.

هذا لا يعني ان الثورة الفلسطينية معصومة عن الخطا ، وحقا انه كان الغباء ان يتوقع اي باحث من ثورة ناشئة كثورتنا بالا تقع في اخطاء قد تكون شنيعة وخطيرة احيانا ، وبالنسبة لمسالة الاعلام بالذات فقد اعطت المنظمات الفلسطينية اهتماما زائدا واكثر من اللزوم لهذه الناحية ـ (راجع مقال غسان كنفاني، «الهدف» عدد ؟) ـ ولكن هذا لا يعني اغفال الراي العام العالمي كليا لما في هذا الراي من اهمية وخاصة في دولة معادية لقضايا الحرية العربية كالولايات المتحدة.

ينتهي المقال الى القول « ان الصهيونية تشجع اهتمام العرب جميعا بقضية الراي العام العالمي حيث ان ذلك سيكبل حرية العمل ضد العدو » .

ما هذا الا التبسيط الخاطىء للامور! وليس من المعلوم كيف تم التوصل الى هذه «النظرية» فهل المقصود هو ان العرب لا يمتلكون الا موارد محدودة جدا وبشكل يمنعهم من استغلالها في مشاريع متعددة او في مشروعين متوازيين مثلا : الاول مواجهة عسكرية مع العدو والثاني بذل مجهود اعلامي ضد العدو ؟. فالواقع هو ان العالم العربي لا يفتقر الى المصادر ولكنه ـ ومع كل اسف ـ يفتقر الى العقول القادرة على توزيع هذه الثروات والمصادر في الطرق الصحيحة المثمرة العائدة على الشعب بالمنفعة .

باختصار ان المقال المذكور مبني على فرضيات خاطئة وانه لمن الموضوعية القول بانه لا يتناسب مع مستوى الدراسات التي تنشرها «الهدف».

□ م. ط ـ ضرم (الكلترا)

بقلم: محمد أبو طربوش